ظهور المذهب التومرتي في المغرب الأقصى وتأثيره على أصحاب الفقه المالكي إبان القرن السادس هجري

أ. محمد فرج جبريل
عضو هيأة التدريس بقسم التاريخ – كلية الآداب والعلوم المرج

ملخص الدراسة:

تتناول هذه الدراسة أحد أبرز جوانب الفكر الديني والسياسي الذي نشأ في المغرب الأقصى وأحدث تغييرات جوهرية في البنية المجتمعية خلال القرن السادس هجري ، وهذا التحول قاده أحد رجالات المغاربة ويدعى محمد بن تومرت ، حيث استهدف بشكل ممنهج القضاء على هيمنة المذهب المالكي الذي كان يشكل العمود الفقري لدولة المرابطين ، وعمل على نشر الدعاية المناهضة للمالكية واتباعهم وتشوية صورتهم أمام الناس وذلك من خلال الخطب الدينية والمجالس العامة والالتقاء بالناس في السواق ، مما أتاح له استقطاب العديد من المؤيدين والانصار ، وذلك عبر رفع شعارات كبرى كالتوحيد والأمر بالمعروف والنهي عن المنكر حيث وظف هذه الشعارات بدهاء لإخفاء طموحاته الشخصية في الوصول إلى السلطة ، في سبيل تعزيز هذه الطموحات نشر بين أنصاره ومؤيديه فكرة المهدية وأنه المهدي المنتظر والمعصوم من الخطأ ، وأنتحل نسباً شريفاً يرقى إلى الفرع الهاشمي وذلك لترسيخ مكانته الدينية والشرعية في قلوب اتباعه وتحقيق اهدفه ونواياه السياسية والمذهبية بدون معارضة أو ممانعة .

Abstract:

This study deals with one of the most prominent aspects of religious and political thought that emerged in Morocco and caused fundamental changes in the societal structure during the sixth century AH. This transformation was led by one of the Moroccan men named Muhammad bin Tumart, as he systematically aimed to eliminate the dominance of the Maliki school of thought, which formed the backbone of the Almoravid state. He worked to spread propaganda against the Malikis and their followers and distort their image in front of the people through religious sermons, public councils, and meeting people in the markets, which enabled him to attract many supporters and supporters, by raising major slogans such as monotheism, enjoining good and forbidding evil, as he used these slogans cleverly to hide his personal ambitions to reach power. In order to enhance these ambitions, he spread among his supporters and backers the idea of the Mahdi and that he is the awaited Mahdi who is infallible, and he assumed a noble lineage that goes back to the Hashemite branch in order to consolidate his religious and legal status in the hearts of his followers and achieve his political and sectarian goals and intentions without opposition or resistance.

المقدمة

كان إقليم المغرب الإسلامي عبر التاريخ أرضاً خصبة وبيئة مناسبة لظهور العديد من الحركات المذهبية والثورية التي في الغالب تسعى لأحداث تغييرات جذرية في النظام القائم والسلطة الحاكمة، وغالياً ما تتخذ هذه الحركات شعارات إصلاحية مثل محاربة البدع والانحرافات والفساد لتغطية طموحاتها السياسية وفي نفس الوقت لكي تكسب تعاطف الناس وجذب الأنصار إليها ، وفي هذا السياق ظهرت حركة محمد بن تومرت التي تبنت رؤية إصلاحية شاملة وجديدة تحت شعارات دينية تدعو إلى تصحيح العقيدة وتنقية المجتمع من البدع والانحرافات بالإضافة إلى تحقيق العدالة والمساواة بين الناس ، مما جذب إليه عدداً غفيراً من الأنصار والمؤيدين الذين أطلق عليهم مع الوقت أسم الموحدين ، ولترسيخ شرعية مذهبة وحركته بشكل أقوى بين أتباعه سمى نفسهُ " المهدي" وادعى العصمة ، وأتهم كل من عارضة وخالفة بالكفر والخروج من الملة ، وهذا ما وقع مع خصومة المرابطين وفقهاء المالكية ، الذين اتهمهم بالمجسمة والكفرة ، واستباح دمائهم وحلل الجهاد فيهم ، واعتبر هذا الجهاد أعظم من الجهاد في الروم ، وقاد حملة تصفية وتنكيل ذد كل من ينتمي لمذهب مالك ، وتوعد كل من يدرس فروع المالكية بالقتل .

يأتي الهدف من هذا البحث لتوضيح أهم العوامل التي ساهمت في تشكيل التوليفة الفكرية والعقدية لحركة ومذهب محمد بن تومرت ، وتبيان مدى الاضطهاد والتصفية التي تعرض لها أصحاب الفقه المالكي على يد التومرتيين .

أما الأهمية تنبثق في فهم نموذج من نماذج التحولات الكبرى والحركات الثورية في تاريخ المغرب الأقصى الذي استند على أسس عقدية ومذهبية وساهم في إعادة التشكيل الخريطة السياسية والبنية العقدية في هذا الإقليم خلال القرن السادس هجري .

وقد تضمن البحث مقدمة وثلاث مباحث وخاتمة ، فالمبحث الأول: تم تخصيصه لتسليط الضوء على شخصية صاحب المذهب " محمد بن تومرت " حيث تم إعطاء نبذه وافية عن نشأته في المغرب الأقصى ، مع توضيح الآراء التي وردت حول نسبة والبيئة التي ترعرع فيها والتي شكلت خلفيته الثقافية والدينية ، بالإضافة إلى التركيز على رحلته في طلب العلم ودراسته على يد كبار العلماء في المشرق والمغرب ، وأما المبحث الثاني: فقد خصصناه للحديث عن المبادئ والأصول العقدية التي استقى منها ابن تومرت فكره ومذهبه ، حيث تبنى كل ما يتوافق مع مشروعة وطموحة وقدمة لاتباعه ولأنصاره تحت مسمى العقيدة التومرتية . أما المبحث الثالث والأخير : فقد افردناه للحديث عن العداء الذي اعلنه اتباع محمد بن تومرت على أصحاب الفقه المالكي ، حيث أعتبروهم منحرفين عن العقيدة الصحيحة واخذوا يتتبعونهم بالتصفية الجسدية وحرق الكتب والمؤلفات وكذلك بالسجن والنفي ، وختمنا البحث بخاتمة شملت على أهم نتائج هذه الدراسة.

ظهور المذهب التومرتي في المغرب الأقصى وتأثيره على أصحاب الفقه المالكي

- **نبذة عامة عن صاحب المذهب "محمد بن تومرت".**

من المعروف أن أي حركة دعوية أو ثورة سياسية لا يمكن فهم جوهرها ولا استيعاب ابعادها الدينية أو السياسية إلا من خلال التعرف على عقلها المدبر وزعيمها الروحي الذي صاغ مبادئها وتبنى أفكارها ، لذلك سنحاول تقديم لمحة تاريخية عامة عن مؤسس المذهب التومرتي لرسم ملامح حياته وتكوينه الفكري

والعلمي وتوضيح المحطات الرئيسية التي أسهمت في تشكيل شخصيته وصولاً إلى المرحلة التي اعلن فيها عن حركته ومذهبه .

وفي الواقع أن كل من يبحث ويتعمق بالقراءة في شخصية "محمد بن تومرت " لاسيما من حيث نشأته ومراحل صباهُ، يرى بأنها شخصية يكتنفها الغموض والاختلاف في العديد من الجوانب، حيث تضاربت آراء الباحثين والمؤرخين حول نسبه وتاريخ ميلاده، وكذلك أصول مذهبه الفقهي والعقدي، بل ظهر الاختلاف حتى في تاريخ وفاته ، ومع ذلك سنحاول التطرق لتلك الاختلافات واستخلاص منها ما يتماشى مع السياق التاريخي.

التعريف بابن تومرت:

يكنى بالمهدي بن تومرت، واسمه الحقيقي محمد بن عبد الله بن عبد الرحمن بن هود بن خالد بن تمام بن عدنان بن صفوان بن جابر... ينتمي إلى هرغة*،وقد تلقب بألقاب متنوعة سواء قبل ظهور دعوته أو بعدها [1] ، منها على سبيل المثال: آسافو أو آسفو، وتعني بالبربرية، الضياء وذلك لكثرة إيقاده للمصابيح بالمساجد عندما كان صبياً يدرس في الكتاتيب[2]، أيضاً لقب بأمقار، والمهدي، وتومرت، وتذكر بعض المراجع أن لقب تومرت لصق بأبيه من قبل، وذلك أنه لما ولد فرحت أمه به، فقال باللسان

* هرغة: قبيلة بربرية من مصمودة أسمها البربري أرغن. تقطن جنوب واد السوس من أشهر بطونها بنى عثمان وبني تامودان.
–البيذق: الصنهاجي، أخبار المهدي ابن تومرت، دار المنصور، الرباط، 1971م، ص 33.

[1] المراكشي، المعجب في تلخيص أخبار المغرب، تحقيق، محمد زينهم، دار الفرجاني، القاهرة، 1994م، ص 155.

[2] ابن خلدون، ديوان المبتدأ والخبر في تاريخ العرب والبربر، دار الفكر، 2000م، ج 6، ص 301.

– مجهول، الحلل الموشيه في ذكر الأخبار المراكشية، تحقيق سهيل زكار، وآخر، دار الرشاد، الدار البيضاء، 1979م، ص 103.

البربري "آتومرت آينو أيك آريبوى" ومعنى ذلك يا فرحتي بك يا بني، وكانت إذا سألت عن حاله وهو صغير تقول... "بك تومرت" أي صار فرحاً وسروراً، فغلب عليه اسم تومرت[3].

- **مولده:**

بعض المؤرخين يشيرون إلى أن مكان ولادته كان بمدينة تعرف باسم السوس، وبالتحديد في قرية تسمى إجليزن "هرغة"[4]حتى أنه هناك من كان يطلق عليه بعد ظهوره بالفقيه السوسي[5] أما المراكشي في معجمه يقول: بأن القرية التي ولد فيها تسمى "أيجلى آن وارغن" جنوب المغرب الأقصى[6] وهناك من يناقض هذا القول ويشير بأن ولادة ابن تومرت كانت بقرية تسمى نومكران[7] سنة 485هـ[8].

أما فيما يخص نسبه فقد كان هو أيضًا موضع اختلاف بين المؤرخين، حيث أثار هذا الأمر جدلاً وتبايناً في الآراء، وذهبوا مذاهب شتى في نسبه ، فهناك من يدعي له نسباً عربياً خالصاً يرقى إلى نسب الرسول عليه الصلاة والسلام، وذلك من جهة فاطمة وزوجها علي بن أبي طالب رضي الله عنه، ومن أشهر المؤرخين الذين مالوا إلى هذا القول هو المراكشي وذلك بقوله: "ولمحمد بن تومرت نسبة متصلة بالحسن ابن الحسن بن علي بن أبي طالب"[9].

---

[3] ابن القطان، نظم الجمان، ت، محمود علي مكي، دار الغرب الإسلامي، 1990م، ص 88-90.

-عنان، محمد، دولة الإسلام في الأندلس عصر المرابطين والموحدين، مكتبة الخانجي، القاهرة، 1990م، ج 1، ص 159.

[4] المراكشي، المعجب، ص 155.

[5] النجار، عبد الحميد، تجربة الإصلاح في حركة المهدي بن تومرت، المعهد العالي للفكر الإسلامي، تونس 1995م، ص 56.

[6] المراكشي، المعجب، ص 245.

-النجار، عبد الحميد، تجربة الإصلاح في حركة المهدي، ص 57.

-نصر الله، سعدون، تاريخ العرب السياسي في المغرب، دار النهضة العربية، بيروت، لبنان، 2003م، ص 285.

[7] ابن القطان، نظم الجمان، ص 90.

[8] ابن خلكان، وفيات الأعيان انباء ابناء الزمان، تحقيق، حسان عباس، دار صادر، بيروت، 1968م، ج5، ص 53.

[9] المراكشي، المعجب، ص 155.

ويميل ابن خلدون إلى هذا القول ويذكر أن رباحاً أحد أجداد ابن تومرت الموجود في عمود نسبه، هو ابن يسار العباسي بن محمد بن الحسن، والراجح فإن نسبه الطالبي وقع في هرغة المصمودية ورسخت عروقه فيها والتحم بعصبيتهم[10] ، وكذلك صاحب الحلل الموشية يأخذ بهذا الرأي[11].

وإلى جانب هذا النسب العربي، هناك بعض المؤرخين يذكرون أن لابن تومرت نسباً فيه مزيج بين العرب والبربر، وهذا آتي نتيجة مصاهرة أخ إدريس الأكبر لقبائل مصمورة عندما حل بينهم، ومن هنا قالوا بأن لابن تومرت نسباً ممزوجاً بين الدم الهامشي والدم البربري[12].

بيد أنه يوجد من يخالف ذلك الرأي ويرجح أن نسب ابن تومرت يعود إلى العرق البربري الخالص، ومن المؤرخين الذين يؤخذون بهذا القول ابن أبي زرع حيث يذكر أن ابن تومرت دعي في نسبه الهاشمي وهو بربري النسب من قبائل مصمودة[13].

وهذا الرأي وجد صداه عند بعض الباحثين والمؤرخين المعاصرين مثل عبد الله عنان، الذي يذكر إن إدعاء ابن تومرت للنسب العربي ما هو إلا نحلةٍ باطلة وثوباً مستعاراً أراد من خلاله تمهيد لإمامته ودعوته[14].

كذلك المؤرخ ليفي بروفنسال، الذي يوضح أن ابن تومرت كان بربري الأصل ويتسمى باسم بربري بحث، ولم يستبدل به اسم محمد إلا في وقت متأخر[15].

---

[10] ابن خلدون، العبر وديوان المبتدأ والخبر، ج6، ص 301.

[11] مجهول، الحلل الموشية، ص 103.

[12] الغناي: مراجع عقيلة، قيام دولة الموحدين، جامعة قاريونس، بنغازي، 1988م، ص 160.

[13] ابن أبي زرع، الفاسي، الانيس المطرب بروض القرطاس، دار المنصور، الرباط، 1972م، ص 173.

[14] عنان ، محمد، دولة الإسلام، ج1، 160.

[15] بروفنسال، ليفي، الإسلام في المغرب والأندلس، ترجمة السيد عبد العزيز سالم، وآخر، شباب الجامعة، الإسكندرية، 1990م، ص 264، 265.

ونحن نميل إلى رأي ابن زرع ، ونؤكد بأن محمد بن تومرت هو بربري الأصل والمنشأ ، حيث ولد وترعرع في مضارب قبائل مصمودة ، وبالتالي كانت بيئة الاجتماعية والثقافية بربرية وأمازيغية صرفه ، كما أن والديه وفق المصادر التاريخية كانا من أبناء مصمودة ،وأما الادعاء بوجود نسب عربي قح فيبدو أنه كان مدفوعاً بالرغبة في إضفاء الشرعية الدينية على شخصية ابن تومرت من خلال ربطه بالبيت الهاشمي وذلك لتعزيز مكانته في قلوب أنصاره و مؤيديه ، والواقع التاريخي يعكس عدم إمكانية قيام انساب عربية داخل قبائل مصمودة البربرية التي كانت حريصة كل الحرص في المحافظة على خصوصيتها على مر تاريخها.

بيئته التي نشأ فيها:

تعد العلاقة بين الإنسان وبيئته التي يعيش فيها علاقة وثيقة ومتبادلة ، فكلًا منهما يؤثر في الآخر تأثيراً مباشراً، ومن هذا المنطلق فإن دراسة البيئة التي نشأ فيها ابن تومرت تعد ضرورة ملحة أذ نسهم في كشف الدور المحوري الذي لعبته في تشكيل رؤاه وأفكاره التي انتجت بعد حين مذهبًا مستقلًا في المغرب الإسلامي[16].

بالرغم من أن ابن تومرت كان ينتمي إلى عائلة متوسطة الحال سواء في المال أو الجاه، إلا أنها كانت تتمتع بمكانة دينية مميزة ، حيث اتسمت اسرته بالتزام والتدين العميق ، وهو ما عبر عنه ابن خلدون بقوله: فكان أهل بيته أهل نسك ورباط[17] وأيضاً المراكشي الذي يشيد بعلو شرفهم ومكارم

[16] النجار، عبد الحميد، تجربة الإصلاح في حركة المهدي بن تومرت، ص 55.

[17] ابن خلدون، العبر، ج6، ص 301.

اخلاقهم[18] وكان والده مهاباً في قبيلته والناس ينادونه بالشيخ ويقال له أيضًا آمغار–أي زعيم القبيلة–[19].

ويبدو أن ابن تومرت منذ صباه قد ورث عن أبيه الكثير من الطباع والخصال الحميدة، والمكانة المرموقة بين أفراد قبيلته فنال رضى الناس وحظي بحبهم وإعجابهم لما يتمتع به من فصاحة اللسان ورجاحة العقل، والحكمة، فصاحب المعجب يقول: "وقد وضع له في النفوس هيبة وفي الصدور عظمة، فلا يراه أحد إلا هابه وعظم أمره، وكان شديد الصمت وكثير الانقباض إذا انفصل عن مجلس العلم لا يكاد يتكلم بكلمة"[20].

وهذا راجع إلى ما تربى عليه في صغره فمنذ كان حدثاً صبياً الحقه أبيه بالكتاتيب فعكف في المساجد والخلوات، فشب على ذلك واتقن القرآن حفظاً ورسماً وقراءة، وهذا ما كان مألوفاً عند أهل المغرب بصفة عامة[21].

رحلته في طلب العلم:

[18] المراكشي، المعجب، ص 155.
[19] القطان، نظم الجمان، ص 88، 90.
– بروفنسال، ليفي، الإسلام في الغرب والأندلس، ص 265.
[20] المراكشي، المعجب، ص 159.
[21] ابن أبي زرع، الانيس المطرب بروض القرطاس، ص 90.
–الغناي، عقيلة، قيام دولة الموحدين، ص 165.
–النجار، عبد الحميد، تجربة الإصلاح، ص 57.

كان ابن تومرت تواقاً للعلوم والمعرفة والتبحر فيها، لذا عقد العزم على السفر والترحال إلى المشرق الإسلامي والمدن التي تزخر بالعلوم والعلماء والفقهاء، لينهل من منابع العلم وأصول الدين، فكانت هذه الرحلة أهم حدث في حياته وأكثرها تأثيراً في آرائه وبلورة أفكاره [22].

حيث بدأ برحلته في عام 500هـ، توجه أولاً إلى الأندلس ونزل قرطبة التي كانت تنعم بتنوع ثقافي وفكري كبير، والتقى بكبار أهل العلم واطلع عن كثب على التيارات الدينية والسياسية التي كانت تعج بها الأندلس، ومن هنا بدأت تنسج معالم دعوته الدينية[23]، ومن الأندلس شد رحاله ميمماً نحو المغرب حيث عبر إلى تونس من ناحية البحر ونزل بمدينة المهدية وتتلمذ على يد أبي عبد الله المازري ت 536هـ، وبعدها توجه إلى مصر[24]، واستقر لفترة من الوقت بمدينة الإسكندرية[25] وحالفه الحظ بأن التقى بالشيخ أبي بكر الطرطوش وتشرب منه أصول وعقائد المذهب الاشعري[26] وتوالت بعدها المحطات التي زارها ابن تومرت، منها بلاد الحجاز [27] والعراق، وقد طاب له المقام في بغداد التي كانت تزخر هي كذلك بالفقهاء والعلماء، في مختلف فروع العلوم والمعارف، ومنها اشبع نهمه وتشرب عقائد مختلفة ومذاهب شتى، كعلم الكلام والفلسفة، والاعتزال، ومبادئ الاشاعرة، وأخذ من كل فن وعلم ما يخدم

---

[22] النجار، عبد الحميد، تجربة الإصلاح، ص 58.

[23] ابن الفطان، نظم الجمان، ص 62.

-مجهول، الحلل الموشية، ص 103-104.

-الغناي، عقيلة، قيام دولة الموحدين، ص 168-169.

[24] النجار، عبد الحميد، حركة الإصلاح، ص 59.

[25] ابن خلدون، العبر، ج 6، 301.

[26] ابن الأثير، الكامل في التاريخ، دار الكتب العلمية، بيروت، د. ت، ج 9، ص 195.

-المراكشي، المعجب، ص 156.

- عنان ، محمد، دولة الإسلام، ج1، ص 160.

[27] ابن خلدون، العبر، ج6، ص 301.

فكرته وهواه، فابن خلدون يقول: "ودخل العراق ولقى جلة العلماء يومئذ، وفحول النظار، وأفاد علماً واسعاً""[28].

ومن أشهر العلماء الذين التقى بهم، الغزالي، والكيا الهراسي، والمبارك بن الجبار، وابو بكر الشاش[29]، وبالتالي فإن تلك الرحلات ساهمت بشكل كبير في توسيع مداركه وتنمية معارفة وذلك باطلاعه على الفرق والمذاهب المختلفة واحوال الدول ومعرفة عوامل قيامها وأسباب سقوطها ، وقد شكلت هذه المعرفة ركيزة أساسية لطموحة السياسي والديني وحفزته إلى السعي لتغيير واقع المغرب الأقصى وذلك بالإضافة بحكم المرابطين ، والبدء بدعوة جديدة وفكر مختلف وفق منظور مغاير مستمد من رؤيته الذاتية [30].

- **الإعلان عن دعوته ومذهبه.**

أن التحصيل العلمي الوفير الذي اكتسبه ابن تومرت في رحلته العلمية ساهم في تشكيل شخصيته العلمية والسياسية، وما أن عاد إلى موطنه حتى أخذ بشكل تريجي يفصح عما كان يختمر في ذهنة، مدعياً تجديد روح الإسلام والخطاب الديني، وبدأ يطعن في مذهب المرابطين وفساد سياستهم ومبادئهم،

---

[28] ابن خلدون، المصدر نفسه، ص 302.
– مجهول: الحلل الموشية، ص 104.
– عنان، محمد، دولة الإسلام، ج 1، ص 161.
–طه، ذنون، وآخرون، تاريخ المغرب العربي، ص 335.
[29] –المراكشي، المعجب، ص 155.
– ابن خلكان، وفيات الأعيان، ج 5، ص 46.
– عنان، محمد دولة الإسلام، ج1، ص 161.
[30] الغناي، عقيلة، سقوط دولة الموحدين، جامعة قاريونس، بنغازي، 1988م، ص 37.

ومن هنا حمل لواء الإصلاح والتنوير وبادر بالتغيير وتأليب قلوب الناس على المرابطين لما في نفسه من مآرب سياسية[31].

وحينما بدأت أفكاره تلقى قبولاً بين الناس، أخذ في اختيار الأشخاص الذين سيعتمد عليهم في تحقيق مشروعه، ومنهم على سبيل المثال: عبد المؤمن بن علي، الذي لمس فيه الذكاء والفطنة والنجابة والفصاحة، فاختاره كنائب له، وذراعه الأيمن، وأخبره بما يسعى إليه، فبايعه على السمع والطاعة[32].

ومن هنا بدأت بوادر حملته ودعوته المعادية للمرابطين تظهر بشكل مباشر وعلني، سواء في مجالس العلم التي كان يعقدها في مساجد مراكش، أو في الأسواق العامة، داعياً للمعروف وناهياً عن المنكر، ومن أمثلة يذكر ابن الأثير أن ابن تومرت صادف ذات مرة أخت أمير المسلمين علي بن يوسف بن تاشفين في السوق مع جواريها وهن سافرات، فاغلظ عليهن القول وأمرهن بالحجاب، فقام اتباعه متحمسين بضرب دوابهن فسقطت أخت الأمير أرضاً، ووصلت هذه الواقعة إلى الأمير، فأمر بإحضاره، وسأله عما فعله بالنساء فدافع عن نفسه وعن أصحابه وبرر دوافع فعلته من باب الغيرة عليهن ، فتعاطف الأمير معه، ولم يمسه بمكروه لكونه داعية ولا حول له ولا قوة[33].

وفي الواقع لو أخضعنا هذا النص إلى التحليل التاريخي، نرى أن هذا النقل فيه مبالغة ومغالطه تاريخية، حيث كيف لرجل أعزل لا يزال في بداية دعوته ليس له من الاتباع إلا النفر القليل أن يتجرأ

---

[31] النجار، عبد الحميد، تجربة الإصلاح، ص 62.
–عنان، محمد، دولة الإسلام، ج1، ص 169.
–مارسية، جورج، بلاد المغرب وعلاقتها بالمشرق الإسلامي، ص 295.
[32] ابن أبي دنيار، المؤنس في أخبار أفريقية وتونس، مطبعة الدولة التونسية، د. ت، ص 107.
–ابن الأثير، الكامل في التاريخ، ج9، 196.
–النجار، عقيلة، تجربة الإصلاح، ص 63.
[33] ابن الأثير، الكامل في التاريخ، ج9، ص 196.

على أخت الأمير التي كانت في حماية موكبها، ويغلظ عليها القول في عدم الحشمة والسفور، بل يوصل الأمر به أن يقوم اتباعه العزل بضرب دواب الجواري، مما أدى إلى سقوط الأميرة، هذا القول لا يؤخذ على علته كما ورد ولا يتماشى مع الواقعية التاريخية.

وفي نظرنا لو وقع هذا الأمر فعلاً لقبض على ابن تومرت واتباعه ولربما قتلوا على بكرة أبيهم، فالأمير علي بن يوسف ليس بهذا الضعف والسذاجة حتى يطلق سراح من اعتدى على حرمته مهما كانت الذرائع والحجج.

ومع الوقت بدأت دعوة ابن تومرت تتسرب إلى العامة، وتلقى رواجاً واسعاً، وأخذت الناس تتداول ما يدعوا إليه، ولما وصل هذا الصدى إلى مسامع الأمير علي بن يوسف قام باستدعائه مره أخرى إلى مجلسه، وسأله عن دعوته واقاويله بحضور ثلة من الفقهاء لكي يواجهوه بالحجة والدليل ويناظروه فيما يدعي، وفي الواقع كانت المناظرة فرصة لابن تومرت لإظهار ما كان يريد البوح به والإفصاح عنه، وهي بمثابة وسيلة دعائية لحركته ودعوته، لأنه يعلم علم اليقين أن نتائج هذه المناظرة ستنتشر سريعاً بين الناس، فدخل معهم في سجال طويل وأخذ يلجمهم بالحجج والأدلة التي تدعم مذهبه، ولم يستطع نظراءه مجاراته بحكم علمه الغزير وثقافته الواسعة فخرج من هذه المناظرة منتصراً وذاع صيته بين الناس، وأصبح مشهوراً بواسطة أعدائه المرابطين الذين ساهموا في إبرازه دون أن يشعروا[34].

بالرغم من أن هناك من نصح الأمير علي بن يوسف بالتخلص من محمد بن تومرت قبل استفحال أمره[35]، مثل الفقيه مالك بن وهب قال للأمير: "أني خائف عليك من ذلك الدجال، وأرى أنك

[34] محمد، سلامة، دولة المرابطين في عهد علي بن يوسف، المكتبة الفصلية،1985م، ص 104.
[35] ابن الأثير، الكامل في التاريخ، ج9، ص 196.

تعتقله وأصحابه، وتنفق عليهم كل يوم دينار لتكتفي شره، وإن لم تفعل ذلك لتنفقن عليه، خزائنك كلها، ثم لا ينفعك ذلك"[36]ولكن الأمير لم يأخذ بنصيحة مالك بن وهب ومال إلى مشورة بعض حاشيته، بأن لا يمسه بسوء حتى لا يثير السخط بين اتباعه، واكتفى بأن يشرط عليه الخروج من مراكش[37].

فخرج من مراكش وسار إلى أغمات، وبلاد السوس حيث قبيلة مصمودة، فالتف حوله الناس، وسمعوا به أهل تلك النواحي فوفدوا عليه، وأخذ يذكرهم بتعاليم مذهبه الذي يقوم على الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر، وأنه لا يجب طاعة المرابطين لاتباعهم الباطل بل الواجب قتالهم ومنعهم عمَّا هم فيه، وأعلمهم أن النبي صلى الله عليه وسلم قد بشر بالمهدي الذي يملأ الأرض عدلًا وأن مكانه الذي يخرج منه المغرب الأقصى، فقام إليه عشرة رجال أحدهم عبد المؤمن بن علي، فقالوا: لا يوجد هذا إلا فيك فأنت المهدي فبايعوه على ذلك سنة 515هـ وخطب فيهم، وخلع بيعة الأمير علي بن يوسف[38] ،ورفع شعار التوحيد وسمى اتباعه بالموحدين[39].

المبادئ والأصول العقدية التي استقى منها ابن تومرت مذهبه

إن المتتبع لسيرة ابن تومرت قبل الدعوة يعرف أنه خلال رحلته العلمية للمشرق قد نهل افكاره من مدارس فكرية متنوعة وعلماء وفلاسفة مختلفين، واستقى من جميع هذه المشارب كل أنواع العلم وأصناف المعرفة، وعند عودته للمغرب تكونت لديه رؤى جديدة ونظرة مغايرة للواقع المذهبي السائد في

---

[36] ابن خلكان، وفيات الأعيان، ج5، ص 50.
[37] ابن الأثير، الكامل في التاريخ، ج9، ص 196.
–عنان ، عبد الله، دولة الإسلام، ج1، ص 171.
[38] ابن الأثير، الكامل في التاريخ، ج9، 197.
[39] النجار، عبد الحميد، تجربة الإصلاح، ص 89.

المغرب، وأخذ يفصح عن ما كان يؤمن من معتقد ويروج ما كان في جعبته من آراء جديدة في محاولة لفرض واقع عقائدي مختلف.

وسنحاول في هذا البحث أن نتعرف على أهم الأصول والمبادئ التي ساهمت في تشكيل مذهبه، حتى يتسنى لنا معرفة الخلفية المذهبية التي اعتمد عليها ابن تومرت، ومدى قربها أو بعدها عن المنهج الإسلامي الصحيح.

وفي الواقع أن كل من يسلط الضوء على مذهب ابن تومرت يستطيع أن يستنتج أنه لم يتأثر بفكر واحد أو مذهب معين، بل كان ينتقي من كل فكر ومذهب ما يتوائم مع هواه وميوله وأهدافه التي يرنوا إليها، وبالتالي يمكن أن يطلق على معتقده بأنه معتقد مركب ومزيج من أصول مذهبية متنوعة ومختلفة، ولعل أهم الاتجاهات الدينية و المذاهب التي تأثر بها ابن تومرت هو المذهب الشيعي،[40] حيث استلهم من هذا التيار مبدأ العصمة* وأخذ يطلق على نفسه المهدي المعصوم، ليغرس في أعين رعاياه احتراماً وتقديراً يرقى إلى حد التقديس، ليتمكن من فرض ما يشاء بدون معارضة[41].

وأخذ يروج لذلك حتى في مؤلفاته وخاصة في كتابه المشهور باسم، أعز ما يطلب الذي انتشر بين مؤيديه وانصاره بشكل كبير، ومن جملة ما جاء فيه حول هذا الموضوع: "يجب أن يكون الإمام

---

[40] المراكشي، المعجب، ص 161.

* العصمة عن أهل السلف الصالح لا تقر ولا تحق إلا للأنبياء والرسل – عليهم الصلاة والسلام–لأنهم مرسلين من الله تعالى لتبليغ الرسائل والشرائع، فلم تثبت العصمة حتى لكبار الصحابة الذين خصهم الله تعالى بالفضل والمكانة الرفيعة مثل أبي بكر وعمر وعثمان وعلي رضي الله عنهم جميعًا.

–الصابوني، محمد علي، النبوة والأنبياء، مكتبة الغزالي، دمشق، 1985م، ص 59–60.

[41] الغناي، عقيلة، قيام دولة الموحدين، ص 206.

معصوماً من الجور لأن الجائر لا يهدم الجور... ولا يصلح الاتفاق إلا باستناد الأمور إلى أولي الأمر وهو الإمام المعصوم من الباطل والظلم..."[42]

وبهذا الادعاء نجد ابن تومرت قد وافق الشيعة ولا سيما الإثنى عشرية في العصمة لأئمتهم من الكبائر والصغائر، بل يذهبون إلى أبعد من ذلك ويقولون إن الإمام كالنبي يجب أن يكون معصوماً من جميع الذنوب والرذائل ومن السهو والخطأ من سن الطفولة حتى الموت، لأن الأئمة حفظة الشرع حسب زعمهم[43].

بالإضافة إلى العصمة انتحل ابن تومرت المهدية، وقال إنه المهدي المنتظر الذي وعد الرسول عليه الصلاة والسلام بظهوره في آخر الزمان، وأخذ يغرس ذلك في نفوس اتباعه، وانصاره، ولقى ادعائه قبولاً بين انصاره وأصبحوا يلقبونه بالمهدي بعد أن كانوا يطلقون عليه الإمام[44].

ومن ضمن المذاهب الأخرى التي استقى منها ابن تومرت أفكاره ومعتقده، مذهب المعتزلة، حيث تبنى بعض افكار ومبادئ المعتزلة، حيث تماشى مع قولهم إن الله لا يكلف العبد ما لا يطيق كما سمى مرتكب الكبيرة بالفاسق ولم يسميه بالمؤمن أو الكافر[45].

كما نادى بنفي الصفات عن الله سبحانه وتعالى[46] حيث قال حينما تحدث عن صفات الله "واشتغلوا بتعلم التوحيد، فأنه أساس دينكم، حتى تنفوا عن الخالق التشبيه، والشريك، والنقائص... والحدود

---

[42] ابن تومرت، أعز ما يطلب، ص 246، 247.

[43] المظفر، محمد رضا، عقائد الأمامية، مكتبة الأمين، النجف، 1968م، ص 67.

–حمد بن صالح السحيباني: الاتجاه الفكري لدعوة بن تومرت، مجلة الإمام محمد بن سعود، العدد السادس، الرياض، 1992م، ص 559.

[44] الغناي، عقيلة، قيام دولة الموحدين، ص 205–206–223.

[45] حمد بن صالح السحيباني، الاتجاه الفكري لدعوة بن تومرت، ص 563.

[46] الغناي، عقيلة، قيام دولة الموحدين، ص 202.

والجهات فمن جعله في جهة ومكان فقد جسمه ومن جسمه فقد جعله مخلوقاً ومن جعله مخلوقاً فهو كعابد وثن[47].

وبالتالي هذا المبدأ – أي حجة التجسيم–من أهم المبادئ التي استغلها ابن تومرت ووظفها في محاربة المرابطين، حيث أوهم اتباعه بأنهم على التوحيد والمرابطين مجسمين، وواجب قتالهم ومن يتقاعس عن ذلك فقد خرج عن طاعته، ومن يموت في سبيل ذلك فيثاب عند الله بجنة الخلد، فأحيى في نفوسهم الحمية الدينية والحماس العقدي[48].

كما سار كذلك على نهج الأشاعرة واقتبس من هذا المذهب، ما يتوافق مع فكره وميوله العقدي، وأخذ يدعو الناس إلى التأويل في النصوص الواردة في صفات الله جل جلاله ، فابن خلدون يقول.. "وانطوى هذا الإمام راجعاً إلى المغرب بحراً متفجراً من العلم وشهاباً ورأياً في الدين، وكان قد لقى بالمشرق أئمة الأشعرية [وعلى رأسهم أبي الحسن الأشعري] وأخذ عنهم واستحسن طريقتهم... فبصر أهل المغرب... وحملهم على القول والتأويل، والأخذ بمذاهب الأشعرية"[49].

ويضيف المراكشي ومؤكداً ما ذكره ابن خلدون، في أن ابن تومرت كان يميل بشكل كبير إلى طريقة الأشاعرة[50].

ومع الوقت نجح ابن تومرت في ترسيخ مفاهيمه الأشعرية بين مؤيديه حيث اقلع هؤلاء عن الفهم الذي كان يعتمد على إقرار النصوص على ظواهرها، وتبنوا فهماً جديداً يقوم على تأويل النصوص بما

---

[47] حمد بن صالح، الاتجاه الفكري لدعوة ابن تومرت، ص 563

[48] الغناي، عقيلة، قيام دولة الموحدين، ص 203.

[49] ابن خلدون، العبر، ج6، ص 302.

[50] المراكشي، المعجب، ص 162.

يحقق التنزيه الكامل لذات الجلالة وصفاته وأفعاله، ولذلك وجدت الأشعرية طريقها إلى السيطرة الواسعة على المغرب منذ قيام الدولة الموحدية[51].

أيضًا من المبادئ والعقائد الخطيرة التي تأثر بها ابن تومرت واستلهم منها بعض الأحكام والأفكار، عقيدة الخوارج، حيث نجده يوافق الخوارج في التساهل في سفك الدماء، والخروج على ولي الأمر، وتكفيرهم واستباحة دمهم[52].

حيث ألزم اتباعه بالجهاد ضد دولة المرابطين واستباحة أموالهم وأرواحهم لأنهم طواغيت، وأن الموت في سبيل ذلك شهادة ترفع شهيدهم إلى جنان الله الخالدة[53].

فكان يوصي جنوده في قتالهم للمرابطين: "اقصدوا هؤلاء المارقين المبدلين الذين تسموا بالمرابطين، فأدعوهم إلى إماتة المنكر وإحياء المعروف، وإزالة البدع والإقرار بالإمام المهدي فإن اجابوكم فهم اخوانكم، وإن لم يفعلوا فقاتلوهم فقد أباحت لكم السنة قتالهم..."[54] ،فانطلقوا كالإعصار الفتي يحطمون اعداءهم وينشرون مبادئهم[55].

ويتبين من هذا العرض الموجز أن الفكر الذي تبناه محمد بن تومرت قد تميز بالانتقائية والنزعة الثورية ، حيث جمع في دعوته مختلف أفكار المذاهب والفرق الإسلامية ، دون أن ينتمي بالكامل لأي منها ، فلم تكن دعوته اشعرية بحثه أو معزليه صرفه ولا حتى من الخوارج بل كانت مزيجاً متنوعاً من

---

[51] النجار، عبد الحميد، تجربة الإصلاح، ص 139.

[52] عبد الجبار صديقي، انهيار دولة الموحدين، مجلة المعارف للبحوث والدراسات التاريخية، العدد السادس، المركز الجامعي، ولاية البيض، ص 199.

[53] الغناي، عقيلة، سقوط دولة الموحدين، ص 40.

[54] المراكشي، المعجب، ص 165.

[55] الغناي، عقيلة، سقوط دولة الموحدين، ص 40.

هذه المذاهب ، فقد أخذ من كل هذه الفرق ما يخدم رؤيته ومصلحته السياسية وجمع هذه الأفكار في كتابه الشهير " أعز ما يطلب " الذي اصبح بمثابة المرجعية الأولى لأنصاره وأتباعه ، ومن هنا اعتاد المؤرخون على يطلقوا على دعوته اسم الدعوة التومرتية وذلك لإبراز طابعها الخاص الذي جمع بين الانتقائية والنزعة الثورية.

وبالعودة على ذي سبق للإجابة على السؤال الذي طرحناه في بداية البحث، ألا وهو هل هذه الدعوة كانت على نهج الإسلام الصحيح أو لا، فأننا نقول بأن هذه العقيدة قد حوت على مفاهيم وافكار بدعية، ومبادئ لفرق تتصف بالغلو والتطرف والتأويل والتشيع، وهذا بلا شك يحملنا أن نصف هذه العقيدة بأنها بدعيه، ولا تمت بصلة لمنهج أهل السنة والجماعة.

عداء التومرتيين لأصحاب الفقه المالكي

بعد شيوع المذهب التومرتي في المغرب الأقصى، بدأ بعض الحكام الموحدين يناصبون العداء للفقهاء المالكيين ويطعنون في مذهبهم ويشوهونه في عيون الناس، وهذا الأمر كان بتحريض من محمد بن تومرت، الذي كان شغله الشاغل هو الطعن في مذهب المرابطين ووصفهم بالخارجين عن الدين الإسلامي، ونعتهم بالمجسمين "الكفرة"[56].

ويحث اتباعه بقوله: "اقتلوا المجسمين والبرابرة المفسدين"[57] ومنذ ذلك الحين أخذت وتيرة الخلاف والصراع تتفاقم بين أصحاب المالكية والفكر الموحدي، فحين تولى الخليفة عبد المؤمن، أمر الناس،

[56] حسين، تواتي: موقف دولة الموحدين من فقهاء المالكية، مجلة القرطاس، العدد الثالث، جامعة أبو بكر بلقايد، تلمسان، 2017م، ص 285.

[57] شواط، الحسين بن محمد، القاضي عياض، دار القلم. دمشق، 1999م، ص 25.

"بتحريق كتب الفروع ورد الناس إلى قراءة كتب الحديث، واستنباط الأحكام منها، وكتب بذلك إلى جميع طلبة العلم..."[58].

ولما تولى أبي يوسف يعقوب المنصور 580-895هـ، سار على خطى جده وأبيه في المضي قدماً لمحو وطمس معالم مذهب الإمام مالك من البلاد[59]، وفي خطوة عملية لتطبيق ذلك، أمر بجمع الكتب الخاصة بالفقه المالكي، وخاصة التي كانت شائعة بين الناس، مثل مدونة سحنون، وكتاب ابن يونس، والتهذيب للبرادعي، وواضحة ابن حبيب، وما شابه هذه الكتب، وقام بإحراقها جميعًا[60].

ويذكر المراكشي بأنه قد شاهد بأم عينه ما حصل من إمعان في القمع والتنكيل للمالكية من قبل يعقوب المنصور، حيث رأى وهو موجود بمدينة فاس، يؤتى بكتب المذهب المالكي على هيئة أحمال وتكدس على بعضها ثم يضرب فيها النار، وكان الأمير يعقوب المنصور يحذر الناس من الأخذ بعلم الرأي والخوض في شيء منه ويتوعد كل من يقوم بذلك بأقصى العقوبات[61].

وحتى لا يترك الناس في فراغ أمر مجموعة من العلماء المقربين له، أن يجمعوا له مصنفاً في الصلاة وما يتعلق بذلك من أنواع العبادات، والزم الناس على دراستها وحفظها، وترك ما دونها، وحتى يؤكد شرعية هذا المصنف كان يملي هذه الأحاديث بنفسه، ويرصد المكافآت والعطايا لكل من تبنى هذا الكتاب ويقبل على حفظه واتقانه[62].

---

[58] السلاوي، الاستقصاء لأخبار دول المغرب الأقصى، تحقيق، جعفر الناصري، وآخر، دار الكتاب، المغرب، 1954م، ج 2، ص 112.

[59] المراكشي، المعجب، ص 232.

[60] المراكشي، نفس المصدر، ص 231.

[61] المراكشي، المعجب، ص 231.

[62] المراكشي، نفس المصدر، ص 231-232.

ولم يتوقف أمر التضييق على أصحاب الفقه المالكي بحرق الكتب فقط، بل وصل الأمر إلى التتبع بالقتل والسجن والتهجير ونهب الأموال والأرزاق، وهذا ما وقع مع العالم الفقيه الحسن بن زرقون ت 621هـ، حيث انزل به التومرتيين العذاب والتنكيل الشديد، لأنه خالفهم في القول وفي المذهب ،فعندما علم الخليفة عبد المؤمن بأن ابن زرقون يقرأ الفروع ويدرس متون المذهب المالكي ،فأمر بالقبض عليه وسجنه والتنكيل به، فالذهبي يذكر، بأنه قد رفع إلى موقع الإعدامات، ولكن لم ينفذ فيه ذلك، وأصدر الخليفة أوامره إلى جنده أن كل من وجد عنده ورقة من الفروع ينفذ فيه القتل دون مراجعته، وأمر باستجلاب مؤلفات ابن زرقون وأمر بحرقها[63].

أما من نفذ فيهم حكم القتل فهم على سبيل المثال:

الفقيه طارق بن موسى العامري ت 556هـ، والفقيه أبو بكر محمد بن إبراهيم الحكمي ت 567هـ، والفقيه أبو القاضي أبو الحسن علي بن محمد اللخمي، المشهور بالقسطي ت 626هـ وغيرهم[64].

ولعل في قصة الفقيه القاضي عياض خير دليل على فداحة القسوة والتنكيل الذي ناله أصحاب المذهب المالكي على يد التومرتيين، حيث تمسك هذا الإمام بمذهبه ومبادئه ورفض الإقرار بما يدعيه هؤلاء، وتحمل قسوة التنكيل على نفسه وأبى القول بمبدأ عصمة ومهدية ابن تومرت، فقرر التضحية بنفسه وأعلن أنه لا عصمة لابن تومرت ولا مهدية له، وأنه دجال وظال، وأن دماء الأبرياء من المسلمين

---

[63] الذهبي، شمس الدين، سير أعلام النبلاء، تحقيق، شعيب الارنؤوط، وآخر، مؤسسة الرسالة، بيروت، 1926م، ج22، ص 311.

– حسن، حسن علي، الحضارة الإسلامية في المغرب والأندلس، مكتبة الخانجي، مصر، 1980م، ص 468.

[64] طاهر، عياش، الفقهاء المالكية والسلطة الموحدية في المغرب الإسلامي، رسالة ماجستير، جامعة الجزائر، كلية العلوم الإنسانية والاجتماعية، 2015م، ص 98-100

في رقبته إلى يوم الدين، فقتل شر قتلة، ورموه بالرماح حتى قطعوه إرباً، ثم قاموا بجمع اشلائه ودفنوها في مكان مجهول بمراكش بلا صلاة ولا غسل[65].

ومن مظاهر عداء التومرتيين للمالكية أنهم قاموا بعزل الكثير من الفقهاء المالكيين من الناحية السياسية والإدارية، وهذا ما حدث مع الفقيه ابن القطان الفاسي الذي كان يتولى بعض الوظائف مثل القضاء والخطابة، عزل عنهما بقرار من الوزير أبي سعيد بن جامع[66].

وبطبيعة الحال كانت السياسة التعسفية المتشددة التي مارسها هؤلاء ضد المذهب المالكي سبباً في ظهور حركات ثورية معادية ومناهضة ضد الموحدين، نذكر منها على سبيل المثال:

ثورة الجزيري:

هي تنتسب إلى الفقيه أبو عبد الله بن عبد الله الجزيري، ثار ضد المنصور الموحدي سنة 580–595هـ حيث أعلن عن هذه الثورة 586هـ بمدينة مراكش، في محاولة لتغيير واقع المغرب الأقصى من انحرافات التومرتيين، حيث أخذ الجزيري ينتقل بين فاس والأندلس ومراكش مروجاً لحقيقة ثورته ،وانقلابه على المنصور، وقد تبعه الكثير من الناس الناقمين على هذا المذهب الجديد وسياسة اتباعه من الموحدين، ومن هنا بدأ الصدام مع المنصور، الذي أعلن النفير وأخذ يبحث عن الجزيري ويترصده في كل المدن والقرى، وكان كل من يقع في قبضته ينكل به، فقتل أناس كثيرون من مؤيدي هذه الثورة، وقد مرت هذه الحركة بمراحل مختلفة، وعصيبة لاسيما حينما وقع الجزيري أسيراً عند المنصور، وبعدها أطلق سراحه بناءٍ على ضمانات في عدم الخروج مرة أخرى، ولكن بعد خروجه عاود الكره من جديد وانتهى به الأمر

---

[65] الذهبي، سير أعلام النبلاء، ج 20، ص 217.
– شواط، الحسين، القاضي عياض، ص 274.
[66] طاهر، عياش، الفقهاء المالكية والسلطة الموحدية، ص 98–100.

بالقبض عليه في مرسية بالأندلس، وأمر المنصور بصلبه وقتله أمام الناس حتى يكون عبرة لكل من يطعن في الدولة الموحدية ومذهبها[67].

وقد مدح أحد الشعراء المنصور الموحدي لنجاحه في التخلص من الجزيري وكان من جملة ما قيل من شعر:

قضى لك الله التأديب والظفر ... وبالسعادة في وردٍ وفي صدر
اثرت في نُصرة الدين المسير على ... طيب المقام وبعت النوم بالسهر
مظفـر فالمغـرور يطالبـه ... فى الأرض من ملجأ عنه ولا وزر
جد الجزيري في إتلاف مهجته ... حتى تورط في وردٍ بلا وزر[68]

حركة بن غانيه

اعلنت هذه الحركة بعد وفاة الأمير أبي يعقوب يوسف بن عبد المؤمن 580هـ مستغلين فرصة انشغال الموحدين بوفاة اميرهم فهاجموا مدينة بجاية التي تمكن بنو غانية من الاستلاء عليها بقيادة على بن إسحاق، حيث دعى إمامهم الفقيه أبو محمد عبد الحق بن عبد الرحمن الأزدي، للعباسيين[69]، وبدأ علي ابن اسحاق يتتبع كل المواليين للفكر الموحدي ،والمذهب التومرتي ويعتقلهم فرادى وجماعة، ولما مكن نفسه من المدينة أعلن إعادة الدعوة للعباسيين، اقتداءً بأسلافه المرابطين[70] وانطلق بعد ذلك يمد

[67] المطيري، راكان، حركات المعارضة في عهد المنصور الموحدي، مجلة الدراسات العربية، كلية العلوم، جامعة المنيا، دون عدد، د. ت، ص 469.
[68] كنون، عبد الله، النبوغ المغربي، دون نشر، 1960م، ج1، ص 812.
[69] المراكشي، المعجب، ص 226.
[70] حسن، علي حسن، الحضارة الإسلامية في المغرب والأندلس، ص 48.

نفوذه في المغرب الأوسط حيث استولى على مدينة مليانة وقلعة بن حماد وكل المدن التابعة لمدينة بجاية[71].

وكان الصراع بين الطرفين مرير وطويل، حيث خاض العديد من المعارك، واستمر الأمر كذلك حتى وفاة يعقوب المنصور 595هـ فحمل من بعده راية المقاومة ضد بني غانية، ابنه الناصر[72].

وبالتالي يمكن القول:

إن هذه الحركة كانت مناهضة للفكر الموحدي والمذهب التومرتي وتنادى بعودة المالكية والدولة المرابطية، لدرجة أن العديد من الفقهاء المالكية ايدوها ودعموها وكانوا سنداً قوياً لها، وبهذا شكلت خطراً كبيراً على الدولة الموحدية ومذهبها، ومع الوقت كانت من ضمن العوامل التي أدت إلى سقوط هذه الدولة.

الخاتمة

بعد دراسة هذا الموضوع يمكن استخلاص جملة من النتائج التي سنحاول حصرها في النقاط التالية:

- أن رحلة محمد بن تومرت العلمية إلى الشرق كانت عاملاً أساسياً في تكوين فكره الديني والسياسي، حيث أطلع على كل التيارات والمذاهب التي كانت تنتشر بالشرق الإسلامي، وكذلك الالتقاء بالعديد من العلماء والفقهاء مما أتاح له النهل من علمهم والاستفادة من خبراتهم العلمية والدينية، حتى اتقن

[71] الغناي، عقيلة، سقوط دولة الموحدين، 179.

[72] السلاوى، الاستقصاء لأخبار دول المغرب الأقصى، ج2، ص 215-217.

فروع العلوم الدينية، وكذلك علم الكلام والفلسفة، فلما رجع إلى المغرب قام بإحداث انقلاب على المذهب القائم وثورة على السلطة الحاكمة، وأخذ البيعة لنفسه.

- ساعدت بساطة قبائل المجتمع المغربي على تغلغل مذهب محمد بن تومرت، فقلة معرفتهم بالأمور الدينية، وبعدهم عن الحواضر الإسلامية الكبرى، جعلهم يميلون إلى عقيدة محمد بن تومرت، الذي أشاع بينهم بأنه المعصوم والمهدي المنتظر، ونسبه يعود لأشراف العلويين وبهذا الادعاء تقاطر عليه المؤيدين والأنصار.
- نجح ابن تومرت في اضعاف وتشويه صورة المالكيين في عيون الناس واتباعه، حيث نبزهم بالمجسمين والكفرة، وفي نفس الوقت وصف اتباعه بالموحدين، فكان لا يقبل أحد للانضمام إليه إلا إذا تبرأ من التجسيم والمجسمة.
- لم يكن مذهب ومعتقد محمد بن تومرت مذهبًا جديدًا بمعنى الكلمة، بل أنه كان مستمدًا من المذاهب والتيارات الدينية المختلفة التي كانت سائدة آنذاك في العالم الإسلامي، كالأشاعرة والشيع والخوارج .
- واجه أصحاب المذهب المالكي حملة اضطهاد وتصفية من قبل بعض حكام الموحدين المتشددين للمذهب التومرتي. حيث واجه هؤلاء الأمرين سواء في المال أو في الأهل ناهيك عن حرق مؤلفاتهم وكتبهم لطمس معالم المذهب المالكي في المغرب.

في الأخير نحمد الله على منته وتوفيقه ونسأله السداد والرشاد في القول والعمل.

قائمة المصادر والمراجع

أولًا: المصادر

- ابن أبي دينار، المؤنس في أخبار إفريقية وتونس، مطبعة الدولة التونسية، د. ت.
- ابن أبي زرع، الأنيس المطرب بروض القرطاس، دار المنصور، الرباط، 1972م.
- ابن الأثير، الكامل في التاريخ، دار الكتب العلمية، بيروت، د. ت.
- ابن القطان، نظم الجمان، تحقيق محمود علي مكي، دار الغرب الإسلامي، 1990م.
- ابن خلدون، ديوان المبتدأ والخبر في تاريخ العرب والبربر، دار الفكر، 2000م.
- ابن خلكان، وفيات الأعيان أنباء أبناء الزمان، تحقيق: إحسان عباس، دار صادر، بيروت، 1968م.
- البيذق، الصنهاجي: أخبار المهدي بن تومرت، دار المنصور، الرباط، 1971م.
- الذهبي، شمس الدين، سير أعلام النبلاء، تحقيق: شعيب الارنؤوط، وآخر، مؤسسة الرسالة، بيروت، 1926م.
- السلاوى، الاستقصا لاخبار دول المغرب الأقصى، تحقيق، جعفر الناصري، وآخر، دار الكتاب، المغرب، 1954م.
- مجهول، الحلل الموشية في ذكر الأخبار المراكشية، تحقيق سهيل زكار، وآخر، دار الرشاد، الدار البيضاء، 1979م.
- المراكشي، المعجب في تلخيص أخبار المغرب، تحقيق: محمد زينهم، دار الفرجاني، القاهرة، 1994م.

ثانيًا: المراجع

- بروفنسال، ليفي، الإسلام في المغرب والأندلس، ترجمة السيد عبد العزيز سالم، وآخر، شباب الجامعة، الإسكندرية، 1990م.
- حسن، حسن علي، الحضارة الإسلامية في المغرب والأندلس، مكتبة الخانجي، مصر، 1980م.
- طاهر، عياش، الفقهاء والمالكية والسلطة الموحدية في المغرب الإسلامي، جامعة الجزائر، كلية العلوم الإنسانية، 2015م.
- طه، ذنون، وآخرون، تاريخ المغرب العربي، دار المدار الإسلامي، زاوية الدهماني، طرابلس، 2004م.
- غسان، محمد، دول الإسلام في الأندلس عصر المرابطين والموحدين، مكتبة الخانجي، القاهرة، 1990م.

- الغناي، مراجع عقيلة، قيام دولة الموحدين، جامعة قاريونس، بنغازي، 1988م.
- كنون، عبد الله، النبوغ المغربي، دون نشر، 1980م.
- مارسية، جورج، بلاد المغرب وعلاقاتها بالمشرق الإسلامي، ترجمة، محمود عبد الصمد هيكل، منشأة المعارف الإسلامية، الإسكندرية، 1999م.
- المظفر، محمد رضا، عقائد الإمامية، مكتبة الأمين، النجف، 1968م.
- النجار، عبد الحميد، تجربة الإصلاح في حركة المهدي بن تومرت، المعهد العالي للفكر الإسلامي، تونس، 1995م.
- نصر الله، سعدون، تاريخ العرب السياسي في المغرب، دار النهضة العربية، بيروت، لبنان، 2003م.

ثالثًا: الدوريات:

- حسين تواتي، موقف دولة الموحدين من فقهاء المالكية، مجلة القرطاس، العدد الثالث، جامعة أبو بكر بلقايد، تلمسان، 2017م.
- حمد بن صالح السجياني، الاتجاه الفكري لدعوة ابن تومرت، مجلة الأمام محمد بن سعود، العدد السادس، الرياض، 1992م.
- عبد الجبار صدقي، انهيار دولة الموحدين، مجلة المعارف للبحوث والدراسات التاريخية، العدد السادس، المركز الجامعي، ولاية البيض.
- المطيري راكان، حركات المعارضة في عهد المنصور الموحدي، مجلة الدراسات العربية، كلية العلوم، جامعة المنيا، مصر، دون عدد.